جواهر الخلفاء العباسيين

كان لرفيف الحضارة أيام العباسيين اثر كبير في رقي العواطف والأذواق ، والاندفاع نحو الترف والبذخ ، ولعل الجواهر والخواتيم والتيجان والوشح المرصعة والقلانس المجوهرة والقضبان العاجية الثمينة والأعمدة المذهبة ، كانت اكبر مظهر من مظاهر ترف الخلفاء وبذخهم ، ثم تعدوا ذلك الى ماهو ابعد واروع ، فزينوا الحيطان والسقوف والأبواب والرواشن بالدر وحلوها بمثل حليهم[1]

وكانت الجواهر منذ الزمن البعيد ، قنية للأكاسرة ، يلتقطونها من كل مكان ، ويرسلون في اثرها الرسل ويجودون بالمال ، وكانت هذه الجواهر مجتمعة من لدن اردشير بن بابك يرثها عنه القائمون بعده كابر عن كابر ، حتى إذا ما جاء الاسلام ، وقوض عرش كسرى ، القت فارس الى الدولة العربية جواهرها وأفلاذها ، على أن هذه الكنوز لم تجد عند الخلفاء الراشدين هوى ، ولم يكن لهم ميل الى هذه الأعراض الدنيوية ، فصدفوا عنها ، وصرفوها الى سائر المسلمين . ولم يكن لبني أمية شغف بالغ بأشباه هذه الأمور ، فقد كانت دولتهم عربية لم يترعن فيها غير نفر او نفرين ، فاتسعت الجواهر المذكورة في ايامهم وامتلأت بها خزائنهم[2] وتناقلها الناس حتى قالوا إنه كان يُعمل منها أوانٍ ، ولهذا قال الشافعي في كتاب حرملة « لا يجوز استعمال أواني الياقوت والبلور لأن قيمتها تفوق قيمة الذهب »[3] وواضح انه لو لم يكن هناك أوان من هذا الضرب لما قال الشافعي قوله . فلما فاجأتهم الدولة العباسية ، وجدوا خيراً كثيراً وجوهراً وافراً ، ولم ينتفعوا الا بالقليل منه فقد حدث بعض أهل مروان « لم يكن لنا في هربنا شيء أنفع من الجواهر الخفيف الثمن الذي لا يجاوز قيمته الخمسة دنانير .. »[4] .

---

(١) الجماهر للبيروني (طبع حيدر آباد ، الدكن — كرنكو) ٣٢ (٢) الجماهر ص ٥٧

(٣) الجماهر ص ٥٤ (٤) الجماهر ص ٦٦

وقد شغف بنو العباس بالجوهر شغفاً كبيراً؛ فقد ذكر ابن خلدون ان السفاح والمنصور اتخذا الأسرة الذهبية المرصعة بالجوهر، والحصر المنسوجة بالذهب المكللة بالدر والياقوت (١)

وذكروا انه كان لهشام بن عبد الملك درة اسمها «الدرة اليتيمة» أتي بها يوماً وعنده امرأته عبدة بنت عبيد الله بن يزيد بن معاوية، وكانت مفرطة السمن، لم تكن تستغني في الحركة عن معونة نفر. فقال لها هشام: إن قمت بنفسك من غير استعانة بأحد فلك هذه الدرّة. فزاولت القيام بشدّة ومشقة، وما تمّ نهوضها حتى خرّت على وجهها وسال الدم من أنفها، فغسلها هشام وأعطاها الدرّة. وكانت ثلاثة مثاقيل، حائزة جميع محاسن الصفات، مدحرجة نقية رائقة رطبة من كثرة الماء. فلما انقضت دولة بني أُمية، وانتدب عبد الله بن علي لبيع ودائع مروان بن محمد، غُمز اليه بأن عند عبدة الدرّة اليتيمة وقرطان لها بقيا لديها. فأحضرها وطالبها بذلك، فأجابته بأني إن دفعت اليك ما تريده فهل تريد مني شيئاً غيره؟ قال لا. فسلّمتْ ذلك اليه. وكانت قد حملته مع نفسها. فقال لها: اختاري لك موضعاً أحسن لك فيه، فسمت موضعاً بالشام، فسيرها اليه. ثم خاف أن يطلع السفاح على ذلك ويستخبرها فأتبعها عبداً، حتى عدل بها عن الطريق وذبحها (٢)

وكان مما أُخذ منها بَدَنة مجوهرة كانت عندها. ذكر الشابشتي في كتابه «الديارات» ان المهدي لما زوج ابنه الرشيد بأم جعفر ابنة اخيه، استعد لها مالم يستعد لامرأة قبلها: من الآلة وصناديق الجوهر والحلي والتيجان والأكاليل وقباب الفضة والذهب والطيب، واعطاها بَدَنة عبيدة ابنة عبد الله بن يزيد امرأة هشام. قال: ولم يُرَ في الاسلام مثلها ومثل الحبّ الذي كان فيها. وكان في ظهرها وصدرها خطان من ياقوت أحمر، وباقيها من الدرّ الكبار الذي ليس مثله (٣) ويقال ان المقومين لم يقفوا على قيمة هذا الدرع لنفاسته(٤)

(١) التمدن الاسلامي ج٥:١٠٦ (٢) الجماهر ١٥٢ (٣) الشابشتي (مخطوطة المجمع العلمي التي فرغنا من تحقيقها) (٤) تحفة العروس ٣٦

وذكر ابراهيم بن المهدي أن اباه اشترى فصاً من ياقوت احمر على أقصى النهاية في النفاسة بثلاثمائة الف دينار ، وكانت اكياسا — لمانضد بعضها على بعض — كالجبل . وقد وهبه للهادي[1] وقيل بل الذي اشتراه هو المنصور باربعين ألف دينار[2]

ثم صار الى الرشيد فقرنه الى الخاتم « الاسماعيل » الذي كان للمنصور . وكان من زمرّد على وزن مثقالين يسمى « البحر » تشبيهاً له بخضرته ، وكان شراؤه بأربعين الف دينار[3]

وذكر البيروني في موضع ثان أن الجبل كان احمر معصفراً بهرماناً صافياً يتزن ثلاثة مثاقيل غير دانق ، وقيمته مائة الف الف دينار . [4] وفي القولين تناقض

وكان الرشيد شديد الولوع بالجواهر حريصاً على اقتنائها ، بعث بالصباح الجوهري ، جدّ الكندي ، الى صاحب سرنديب لابتياع جواهر في ناحيته[5]

وذكروا ان الرشيد كان ينثر الجوهر بغير حساب . وكان في جملة حظياته واحدة لم ترزق جارية من الجمال مارزقته هي . وكان الرشيد إذا أتحفهن بشيء ردّت هذه حصتها ، وهو يغتاظ من ذلك . فاتفق يوماً أنه نثر عليهن جواهر لها قيم عظام فالتقطنها ، ولم تمدّ تلك اليها يداً . ثم أحضر جواهر غيرها وخيرهن ، فاخترن ، وقال لتلك : لِمَ لا تختارين أسوة بصواحبك ؟ قالت : إن كان لي ما أختاره فسافعل ، وجاءت وأخذت بيده وقالت له : هذا اختياري من جميع جواهر العالم . فأعجب الرشيد بها وسماها خالصة وفاقت سائرهن في الحظوة منه وفي الصلات والثوائب والمواهب[6]

وذكر البيهقي انه اشتُري للرشيد جوهر بمائتي الف دينار فوهبه لدنانير البرمكية[7]

ولم تكن زبيدة زوجه بأقلّ منه عناية بالجواهر ، فقد كان لها سبحة من يواقيت رُمانية كالبنادق[8] وكان شراؤها خمسين الف دينار . وجرى بين الرشيد

(١) الجماهر ٦١ (٢) المحاسن والمساوي للبيهقي ٥٠٣ (٣) الجماهر ١٥٢
(٤) الجماهر ٦٢ (٥) الجماهر ٦٣ (٦) الجماهر ٥٨ (٧) المحاسن والمساوي ٥٤٤
(٨) الجماهر ٥٨

وبينها يوماً ذكر نزاهة عمارة بن حمزة وعلو همته . فقالت : إن الأقدام الثابتة تزلّ عن مواطئها عند روائح المال ، فادْع به وهبْ له سبحتي هذه فان ردّها عرفنا نزاهته . ففعل ، وخلا به الرشيد في امر مهم ، ثم اتبعه السبحة ، فوضعها عمارة بين يديه بعد ان شكر برّه . ولما قام تركها مكانها . فقالت زبيدة : قد أنسيها ، فأتبعه خادماً بها . فقال للخادم : هي لك ان صدقت . فرجع قائلاً : إن عمارة قد وهبها لي ، فأعطته زبيدة الف دينار وارتجعتها منه (١)

وقد بلغ من اعجاب زبيدة بالدر ان أمرت ان يُتخذ ثياباً لوصائفها من الدر المثقوب بالتصليب . (٢) ثم ازداد هذا حتى انها اتخذت الخفاف المرصعة بالجوهر تلبسها في قصرها (٣) .

وقيل إنها اشترت لعبد الله ابن المخلوع قضيباً من زمرّد قدر ذراع بأربعة وثمانين الف دينار ليلعب به يوم إعذاره (طهوره) وكان على رأسه طائر من ياقوت احمر (٤)

أما المأمون فأخباره متناقضة ، تدل على شغفه بالجواهر تارة ، وتظهر نفوره منها أحياناً . فقد ذكروا انه لما قدم بغداد منصرفاً من خراسان اهدي اليه الفضل بن الربيع فصّ ياقوت لم يُرَ مثله . فأخذ المأمون يقلبه ويحوّله من يدٍ الى يد ، ويقول لجلسائه « ما رأيتُ أحسن من هذا الفصّ . ثم حدّثهم أن أبا مسلم سرّح زياد بن صالح الى الصين ، فوجه اليه بفصّ وقع له من جهته الى ابي العباس السفاح ، فوهبه لعبد الله بن علي ، وصار منه الى المهدي ثم الى الرشيد ، فبينا هو يرمي قوس جلاهق اذ بدر الفصّ من خاتمه وكرّ في ذلك الموضع حواليه ، فلم يُعثر له على اثر ، واغتم جداً . فاشترى له صاحب المصلّى فصاً عديم المثل بعشرين الف دينار ، وبعث به اليه ليسليه عنه فلما نظر اليه قال واين هذا من فصي ؟

ثم قال المأمون : « لأضعنّ من قدر هذه الحجارة التي لا معنى لها » ثم ردّ الفصّ على الفضل (٥)

---

(١) الجماهر ١٥٦ (٢) الجماهر ٥٨ (٣) المسعودي ٣٦٦ (٤) الجماهر ١٦٥
(٥) الجماهر ٦٥

وذكر ابن خلدون وابن شاكر أن المأمون أعطى زوجه بوران ليلة زفافها الف حصاة من الياقوت ، وبسط لها فرشاً كان الحصير منه منسوجاً بالذهب مكللاً بالدرّ والياقوت ، فكان بياض الدرّ يشرق على صفرة الذهب، ونثر الحسن بن سهل على المأمون في تلك الليلة الف جوهرة . [1]

وقيل ان زبيدة لما دخلت على المأمون عند دخوله بغداد ، هنأته بالخلافة ، فأعجب بكلامها وحشى فاها دراً [2]

وذكروا ان المأمون كان يحب الواثق ويجتهد في تخريجه وعادله في السفر مرة فأخذ الجمّال في الحداء ، وأشفق المأمون ان يستيقظ الواثق من نومه ، ولم يمكنه النداء بالجمال ، فقطع سلك سبحة من الدر واخذ يرميه بدرّة بعد أخرى الى أن أصابه ، فالتفت اليه وأومأ اليه بالسكوت . ثم دُل احد الثقات بالغداة على الموضع فالتقطها من الطريق [3]

ولم يكن الأمين بأقل شغفاً بالجوهر من أمه وابيه ، حتى بلغ به ذلك ان كان يشرب بأقداح من بلور كللت جوانبها بالجوهر الثمين [4]

اما المعتصم فقد ورث ما كان عند أبيه واخيه ، وقالوا انه لما قتل الإفشين اخذ من داره اصناماً محلاّة بالذهب والجواهر [5]

وكانت هذه الجواهر تقع أحايين كثيرة في أيدي الحاشية والوصائف ، وربما عادت الى خليفة آخر مرة اخرى . فذكروا ان المتوكل جلس يوماً لهدايا النيروز ، فقدّم اليه كل عِلق ثمين ، فدخل عليه طبيبه جبريل بن بختيشوع ، وكان يأنس به ، فقال : ما ترى في هذا اليوم ؟ قال جبريل : مثل خرباشات الشحاذين ! إذ ليس لها قدر .. أقبل على ما معي . ثم أخرج من كمه درج آبنوس مضبب بالذهب ، وفتحه عن حرير اخضر ، فانكشف عن ملعقة كبيرة من الجوهر لمع منها

(١) عيون التواريخ (مخطوط) ج ٦ سنة ٢٠٤ (دار الكتب الظاهرية)

(٢) عيون التواريخ ٦ : سنة ٢٢٦ (٣) الجماهر ١٥٦ (٤) المحاسن والمساوي ٣٦٢

(٥) عيون التواريخ ٦ : سنة ٢٢٦

شهاب . فوضعها بين يديه . فرأى المتوكل مالا عهد له بمثله . فقال : من أين لك هذا ؟ قال من الناس الكرام . ثم حدّث انه صار الى ابيه من ام جعفر زبيدة في ثلاث شكايات عالجها فيها ، بثلاثمائة الف دينار [١]

ودخل بختيشوع على المتوكل يوم مهرجان . فقال اين هديتك ؟ فقال هديتي لم يملكها خليفة قبلك ، واخرج ملعقة زبرجد توزن ثمانية مثاقيل ، وحكى عن أبيه جبريل انه قصد دنانير جارية يحيى بن خالد فوجدها تأكل رماناً بهذه الملعقة ، فقالت له خذ هذه الملعقة ، فأخذها ، ففرح المتوكل ، واحضر عتاباً الجوهري لتقويمها فقال « ما أعرف لهذه قيمة ! .. » [٢]

وقد كان الواثق يملك الدر الكثير . وحكى محمد بن بشير النديم انه دخل على الواثق فاذا هو في دار مفروشة الأرض والحيطان بالوشي المنسوج بالذهب على سرير مرصع بالجوهر والى جانبه جاريته فريدة ، وذكر ان الواثق اغضب فريدة يوماً فاسترضاها بحقٍ فيه عقد جوهر ما رؤي مثله لخليفة [٣]

ولا ندري ما كان يفعل المعتز بالجواهر لو طالت خلافته ، على انّ امه قبيحة — زوج المتوكل — كانت تجمع الجواهر وتدخرها . ولكنها لم تنتفع بها في دين ولا دنيا . ولم تغث به ابنها حين طلب منه الاتراك خمسين الف دينار على ان يقتلوا صالح بن وصيف ويريحوه منه . فلاذ بأمه فشحت عليه وقالت : لا مال عندي . فلما قُتل المعتزّ وجد لها صالح ثلاثة اسفاط فيها زمرّد وجوهر وياقوت أحمر ، ما ظُنّ ان يقع مثله ويكون في أيدي العالم . وقوّم هذا كله بألفي الف دينار . وقوّمت الأسفاط بألف الف دينار [٤]

ولما اشارت قبيحة هذه ، على ابنها المعتز بقتل أخيه المؤيد بعثت قبيحة الى امه في شهر رمضان بسبحة درّ قيمتها اربعة آلاف دينار وقالت لها سبّحي

(١) الجماهر ٥٤ (٢) الجماهر ١٦٥ (٣) عيون التواريخ ٦ : سنة ٢٣٢
(٤) الجماهر ٦٨

بها يا أُختي . فسحقتها في الهاون ولفتها في كاغد وردّتها الى حاملتها وقالت لها : اقرئي عني اختي السلام وقولي لها : التسبيح لا يذهب بجزازات الدماء [١]

وكان بعض الخلفاء يبتاعون المتاع والأثاث بالجواهر بدلاً من الدنانير . فذكر ابن شاكر ان المستعين اشترى من المعتز كثيراً من المتاع والأثاث بما قيمته عشرة آلاف الف دينار وعشر حبات جوهر [٢]

ولما انتقلت الخلافة الى المقتدر حتى كانت خزانة الدولة مترعة بالجواهر . ومن جملتها حجر الياقوت الذي اشتراه الرشيد بثلاثمائة الف دينار ، والدرة اليتيمة التي قومت بمائة وعشرين الف دينار وغير ذلك . [٣] على ان المقتدر اضاع ما وصل اليه على النساء وبذّرها فيهن . ولما احتشم وزيرَه العباس ورام اسكاته بالاشتراك في في النهب وتلويثه بالخيانة انفذ اليه من الجواهر ما يعظم مقداره تكرمة له ، فردّها العباس قائلاً « انها زينة الاسلام وعدّة الخلافة وليس تفريقها بصواب » [٤]

وكان لخالة المقتدر هذا فص يلقب بورقة الآس ، لانه كان على مقداره وزنه مثقال الا شعيرتان ، وشراؤه ستين الف درهم [٥]

* * *

تلك لمح موجزات عن الجواهر التي وصلت الى خلفاء بني العباس ، وإذا اضفنا الى هذا تلك الجواهر التي كانوا يزينون بها قصورهم ، كبرج المتوكل ، وقصر الثريا ، وقصور المقتدر وقصور سامرا ، رأينا الترف والبذخ الذين رتع فيهما الخلفاء ، فكانا سبباً في وهن ملكهم واندثار حضارتهم .

دمشق صلاح الدين المنجد

(١) الجماهر ١٥٨ (٢) عيون التواريخ ٦ : سنة ٢٤٨ (٣) الفخري ١٩١
(٤) الجماهر ٥٧ (٥) الجماهر ٥٧ .